

نحن و اللغويات

عبد النبي اصطيف

يلاحظ المتتبع لجريات الحياة الثقافية التي يشهدها القطر العربي السوري بشكل خاص ، والوطن العربي بشكل عام ، اهتماما متزايدا باللغويات « Linguistique » او « Linguistics » او ما يميل البعض الى تسميته بعلم اللسان ، او اللسانيات ، او علم اللفة ، او الألسنيات ، او غيرها من التسميات التي يعكس الاختلاف عليها مدى التخبط الذي يجده العرب المعاصرون في مواجهة هذا التقعيد الثقافي الذي ربما بدا غريبا عن تقليدهم الخاص بهم .

والحقيقة أن هذا التخبط ينطوي على مفارقة غريبة حقا ، لان العرب القدماء قد أولوا لفتحهم عناية ربما لم تكد تعرفها أمة أخرى على وجه الأرض . بل ان-الوجه المحدد (بكسر الدال المشددة) للقومية العربية كان وما يزال وسيبقى اللغة بما تمثله من ثقافة وفكر . ولذلك فاننا لا نجد اية غرابة عندما نسمع النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم يشير الى ان العربية ليست بأحدنا من اب وام ، وانما العربية عربية اللسان فمن تكلم بها فهو عربي .

فرغم أن المرء لا يمكن أن ينكر أثر عامل الحفاظ على لغة القرآن في الحفز على هذا الاهتمام الفريد باللغة العربية ، فانه من جهة أخرى لا يسعه الا ان يشير الى أن الاهتمام ما كان له أن ينمو ويزدهر ويتوج بالدراسات الناضجة والجدية والهامة للظواهر اللغوية المتصلة باللغة العربية ، لو لم يصادف أرضا خصبة في نفوس أولئك العرب الذين كانوا ولا شك أكثر منا حرصا بدراسة لا يمكن قياسها على لغتنا . مع العلم بأن حاجتنا الى الاهتمام بالوجه المحدد لهويتنا القومية هي بالتأكيد أكبر بكثير من حاجتهم في القرون الأولى للهجرة ، بل اني لاكاد أزعم بأنه لا يمكن تحقيق أي نوع من الوحدة الثقافية الحقيقية بين الاقطار العربية ، ما لم يتم تطوير الدراسات اللغوية العربية على المستوى القومي ، لأن النهوض باللغة هو نهوض بالفكر ، وليس ثمة من حاجة الى التذكير بما يطبع هذا الفكر من تخلف وضيق افق وسطحية ونقص في مستوى الجدية والرصانة المطلوبة . ولنتذكر بأن اللغة تصنع الفكر حين يصنع الفكر اللغة ، وأن العلاقة بينهما متبادلة وأن تحقيق أي تقدم في أي منهما يعتمد بشكل أساسي على تحقيق تقدم مماثل في العنصر الآخر .

وربما وجد البعض في دعوتي هذه الى النهوض بالدراسات اللغوية تطويرها - الى درجة تستطيع معها اللغة العربية الوقوف على قدميها في مجال الدراسات الادبية ، والدراسات الانسانية ، والدراسات العلمية

النظرية أو الطبيعية - بعض الغرابة . فثمة انطباع خاطيء قائم على
أسس متفائلة اكثر من الضروري مفاده ان **اللغة العربية المعاصرة** - واود
هنا ان اؤكد على كلمة المعاصرة - لغة متطورة وانها تستطيع ان تنهض
بعيب التفكير عن اي شأن من شؤون الحياة العربية الحديثة ، ففي هذا
شطط ما يعمده شطط عن واقع حال هذه اللغة .

وحتى لا اجعل كلامي يدور في مجال التجريدات ، فاني اشير الى
لغة النقد الادبي العربي الحديث ، لغة النقد الادبي المكتوب بالعربية
والذي يناقش الادب العربي الحديث . ان تفحص لغة هذا النقد وحتى
على نحو متعجل يكشف بسهولة انها لغة مائعة ، سديمية ، غير
واضحة ، وغير متسقة ، لا تستند الى مصطلح ثابت ، وهي على وجه
الاجمال لغة غير مسؤولة . ان كتاب النقد - الاقل قليلة منهم -
يستخدمون اللغة العربية بلا مبالاة شديدة وغريبة من نوعها . بل ان
ممارسة الكتابة النقدية تقوم في الاصل على عادات غير صحية اطلاقا .

ومن هنا فان المرء يستطيع ان يشير الى امكانية الافادة من علم اللغة
/ او علومها في ميدان النقد الادبي العربي ، فاقل ما يمكن ان يقدمه في هذا
المجال لغة وصفية دقيقة للعملية الادبية انتاجا واستقبالا ، تساعد في
تحليل النص الادبي تحصيلا قابلا للفهم ، وهو من اهم ما ينقص نقدنا
العربي المعاصر فيما يبدو لي .

والواقع ان علوم اللغة ، او اللغويات ، تستطيع ان تقدم لنا نموذجا
ممتازا يمكن الافادة منه في تطوير نظرية للادب تقوم في علاقتها بالممارسات
النقدية التطبيقية ، او التفسيرية ، مقام النظام اللغوي في علاقه بالانشاء
الفردى .

وربما تحسن الاشارة هنا الى ان سلطة النموذج اللغوي مستمدة من
جملة من الحقائق لا يمارى فيها اي دارس جاد لوضع الدراسات الانسانية
الحديثة عامة واللغويات خاصة منها :

١ - أن اللغويات الحديثة قد حققت في هذا القرن تطورات هامة جدا في مجال خلق تنظيم علمي لنفسها كمعرفة انسانية ، اضافة الى تحقيق تقدم ملحوظ في فهم الظواهر اللغوية بشكل عام .

٢ - أن اللغويات معنية باللغة التي هي الاداة نفسها التي يستخدمها الادب ، اي انهما يشتركان في موضوعهما على الأقل (١) .

٣ - أن اللغويات أو علم اللغة هو جزء من علم العلاقات *Semiology* الذي تحدث عنه أبو اللغويات الحديثة فرديناند دو سوسير ، والادب هو أيضا وبمعنى ما نظام علامات له صلته بأنظمة العلامات الاخرى ، والنظام اللغوي من هذا المنظور هام جدا لانه من اكثر انظمة العلامات تطورا وتقدما .



يقول جورج واتسن معلقا على انتشار التقلبات الثقافية في الغرب :
 « فان لم تكن وجوديا في الاربعينات ، وبنوييا في الخمسينات ،
 وماركسيا في السبعينات ، ومتحمسا لنظرية اللغويات في السبعينات
 قضي عليك بسهولة باعتبارك شخصا تعوزك الحساسية ازاء مقتضيات
 الحياة الفكرية » (٢) .

والقارئ العربي لهذه الفقرة لا يمكنه الا ان يؤكد ان من الاهمية بمكان
 الا يكون عملنا في ميدان اللغويات نوعا من التقلية حتى تكفل له ان يترك
 آثاره في مجمل حياتنا الثقافية ككل ، او بمعنى آخر ينبغي لهذا العمل
 ان يكون واعيا منظما مخططا ومنسقا وجماعيا حتى يستطيع ان يؤتي
 ثماره المرجوة منه .

واذا كان للمرء أن يقترح جملة من الامور في هذا السياق فانه يمكن
 الاشارة الى ما يلي :

١ - القيام بترجمة امهات كتب اللغويات الحديثة والتي تشكل معالم بارزة في التطورات المختلفة التي شهدتها هذا العلم في هذا القرن .

ولا اظن ان ثمة من يماري في ان ترجمة عربية لاعمال كل من تشومسكي ، وج ليونز ، ود. كريستل ، وهاليداي ، وز ، هاريس ، ول ، بلومفيلد ، وروي هاريس وفرديناند دو سوسير ، ومارتينييه ، ول ، هيلمسليف ، وقيتغنشتاين ، ورومان جاكسون ، وقولشينوفا ، وباختين وآخرين ، هي من أولى الخطوات ، واكثرها ضرورة في الطريق نحو التعرف على اسهامات الآخرين في هذا العلم ، ومن ثمة محاولة استيعابها ، والافادة منها الافادة المرجوة في اقامة علم لغة عربي يكون استمرارا للاسهامات العربية الكلاسيكية المشرقة من ناحية ، ومواكبا للمراحل التي بلفها في الثقافات الأخرى من ناحية أخرى ، او بعبارة أخرى يكون علما عربيا ومعاصرا في آن معا .

ولا حاجة للتأكيد هنا على ان هذه الترجمة ينبغي ان تتمتع بشروط (يجد المرء نفسه بحاجة الى التذكير بها لانها نادرا ما تراعى رغم مضيئنا كل هذا الشوط في ميدان الترجمة) منها ان تكون من اللغة الام التي الفت فيها هذه الكتب لا من لغة أخرى ، كما هو الشأن في الكثرة من تراجمنا ، وان تتم من قبل علماء لغة مختصين باللغويات الحديثة ومتقنين للفتين المعنيتين والثقافتين المحددتين لهاتين اللغتين ، وان تكون الترجمة مقروءة مزودة بما هو ضروري من هوامش وتعليقات وشروح وفهارس ، واخيرا ان تصدر خالية من الاخطاء المطبعية وغيرها ، والتي لا سبيل الى تجنبها فيما يبدو رغم كل التقدم التقني الذي شهدته حركة الطباعة .

٢ - احياء اللغويات العربية الكلاسيكية عن طريق جملة من الخطوات منها :

آ - فهرسة المخطوطات المتعلقة باللغويات العربية الكلاسيكية حتى يسهل الحصول عليها ومراجعتها على المدى القريب ، واخراجها في طبعات محققة وموثقة وعلمية على المدى البعيد .

ومن الضروري أن يشمل هذا العمل المخطوطات العربية المتوفرة في مكتبات الوطن العربي وخارجه حتى تكون صورتنا عن هذه اللغويات أكثر موضوعية وقربا من واقع الحال .

ب - المحاولة الجادة والمخططة والمنظمة للقيام بتحقيق المخطوطات المتوفرة حسب أهميتها وصلتها بالحياة الثقافية المعاصرة حتى يمكن الافادة منها في احياء المصطلحات الضرورية للنهوض بعلم كهذا .

ح - القيام بكتابة تاريخ اللغويات العربية الكلاسية حتى يستطيع اللغويون العرب المعاصرون الاستعانة به في كل ما سبق من خطوات .

وربما يحسن بالمرء أن يؤكد هنا على أمر هو على غاية ما يكون من الخطر على المدى البعيد ، وهو محاولة بعض الباحثين العرب (في حماسهم المشكور لاقامة أو تأسيس علم لغة عربي) قراءة بعض النصوص العربية اللغوية الكلاسية قراءة فيها الكثير من الاسقاط للافكار اللغوية الحديثة عليها، وحمل متعنت لها على البوح فيما هي غير قادرة عليه الا بشق النفس؛ أو محاولة المقارنة بين اللغويات العربية الكلاسية ، واللغويات الحديثة الفرنسية أو الانكليزية أو الامريكية ، واعطاء انطباع بأن العرب القدماء قد استبقوا الكثير مما قام ويقوم به الغربيون اليوم . وممكن الخطر في هذه المحاولات التي يملئها الحماس وطيبة القلب والمشاعر القومية ، هو أنها قد تؤدي الى شعور بالاكْتفاء بما في هذه الثقافة الكلاسيكية والاستغناء عما يمكن أن تقدمه دراسة جادة - ومجهدة بالطبع - اللغويات الحديثة باللغات الاخرى ، خاصة وأنا اشد ما نكون حاجة الى الاطلاع على اسهامة الامم الاخرى الى هذا النوع البعيد التأثير من المعارف الانسانية ، والذي يكاد تأثيره يسع جملة صالحة من العلوم الانسانية الاخرى .

٣) - ادخال اللغويات الحديثة الى جامعاتنا على نحو مجد ومفيد وفعال وعلى عدة مستويات يمكن التدرج فيها حسب الامكانيات المتاحة .

أ - مستوى المادة الفرعية في اقسام كليات الاداب والعلوم الانسانية.

ب - مستوى المادة الرئيسية في اقسام اللغات العربية والاجنبية .

ج - مستوى الدرجة الجامعية الاولى ، فالثانية ، فالثالثة ، وذلك بالتخطيط البعيد لاستحداث قسم للغويات والصوتيات بمختلف فروعها ومجالات تطبيقها .

مع التأكيد في كل هذه الامور على حقيقة واضحة وضوح الشمس وهي ان اللغويات الحديثة والمعاصرة ليست بنت اللغويات القديمة وليست تطويرا مباشرا لها ، بل هي علم مستقل جديد الى حد بعيد ، افاد الى درجة كبيرة من التطورات التي مرت بها العلوم الانسانية ، مثلما حفز الكثير من تطوراتها ، اكثر من افادته من اللغويات القديمة .

٤ - محاولة القيام بوضع معجم اولي بمصطلحات هذا العلم الجديد يسهل على القائمين مهمة تقريبه الى الناشئة من ناحية ، ويوحد فيما بين الجهود العربية في مختلف الاقطار ، ويسهل تبادل الفوائد فيما بينها من ناحية اخرى . ومن الضروري بمكان ان يتم تطوير هذا المعجم وتوسيعه وتحديثه دوريا .

وربما كان بالامكان في هذا السياق الافادة من المحاولة الرائدة لمحمد رشاد حمزاوي(٣) ، وتطويرها ، ومن ثم اعتمادها كأساس لمعجم افضل واوسع واكثر احاطة ودقة . (وذلك اضافة الى صبور عبد السلام المسدي(٤) ، وحمادي صمود(٥) في ميدان المصطلح النقدي اللساني) .

وبالطبع فان هذه الامور هي مجرد اقتراحات املتتها التجربة الشخصية لصاحب هذه السطور مع ما يكتب وينشر في الاقطار العربية من مواد تحمل ما يشير الى انها تنتمي الى هذا الجانب او ذلك من اللغويات الحديثة ، وهي عند المقارنة بما يكتب وينشر في الاقطار الاخرى وخاصة في اوربا الغربية والاتحاد السوفياتي وامريكا لا تستطيع (الا قلة قليلة منها في المغرب العربي) ان تبين عن انتمائها هذا الا بخفر شديد حقا .

كلية سانت انتوني - جامعة اكسفورد

ايلول / ١٩٨٢

هوامش

(١) أنظر مقدمة بيتر بروكس لكتاب تزيفتان تودوروف ، مدخل الى فن الشعر ، من ترجمة ريتشارد هاورد ، مطبعة جامعة مينيسوتا ، ١٩٨١ ، ص ص (١١-١٢ من المقدمة) .

Tzvetan Todorov, **Introduction to Poetics**, Translated from French by Richard Howard, Introduction by Peter Brooks, University of Mennisota Press, 1981, pp. XIXII.

(٢) أنظر ، جورج واتسن ، « الفكر الادبي المعاصر : النيوية ، النقد الجديد الفرنسي : اللغويات الجديدة » (ترجمة : د. محمد مصطفى بدوي ، المعرفة ، (دمشق) ، السنة التاسعة عشرة ، العددان ٢٢٠-٢٢١ ، حزيران - تموز ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٧٥-٢٨٦) ص ٢٧٨ .

(٣) أنظر ، محمد رشاد الحمزاوي ، المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية ، عدد خاص من حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٤ ، ١٩٧٧ .

(٤) أنظر « الملاحق » وخاصة « كشف المصطلحات » و« ثبت الالفاظ الاجنبية » في كتاب عبد السلام المسدي ، الاسلوبية والاسلوب : نحو بديل السني في نقد الادب الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٧٧ ، ص ص (١٢٣ - ٢٠٧) و (٢٠٨ - ٢٢٢) .

(٥) أنظر ، حمادي صمود ، « معجم لمصطلحات النقد الحديثة (قسم اول) » ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٥ ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٢٥ - ١٥٩ .

وانظر كذلك ماسماه توفيق الزبيدي « بثبت المصطلحات المستقرة » في بحثه « مدخل لدراسة اثر اللسانيات في النقد العربي الحديث » المنشور في الموقف الادبي ص ص ١٦٥ - ٢٠٨ ، وخاصة الصفحات : (١٩٥ - ٢٠١) والبحث فيما يذكر صاحبه هو دراسة جامعية تحمل عنوان :

« اثر اللسانيات في النقد العربي من خلال بعض نماذجه » قدمت في حزيران ١٩٨٠ لنيل « شهادة الكفاءة في البحث العلمي » ضمن المرحلة الثالثة من التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس ، وقد أشرف على الدراسة الدكتور عبد السلام المسدي .